



كأنه رجل يمشي....!!!

هذا ما دعاني لحمل مصباح واقتحام ظلام الليل إلى طريق شديد البرودة مفعم بالصمت إلا مما يتخلله من أصوات زخات المطر تسرى خلاله بهدوء يعكر عليها بين حين وآخر أضواء وصخب القصف من هنا وهناك!! اقتربت منه..

كان رجلاً كهلاً فوق الخمسين..

يغدو ويروح في الطريق يقلب كفأً على أخرى..
وقفت أمامه..

حاولت أن أسلم عليه..

رد على السلام بإحباط شديد!!!

لم أجرب حقيقة أن أسأله عن سبب ذلك القلق الذي يلبسه..
لأنني حينما تأملت عينيه لم أجد فيهما مساحة لأية شكوى!!

وكان الرجل قد استنفد كل ما لديه من شكاوى وقد أظلمت أمامه السبل فلم يعد يرى أمامه من الآمال إلا الآلام!!
أشترت عليه بيدي متسائلاً بخجل محاولاً أن أسمع منه شكاوه..
ووالله ما أن شعر برغبتي في معرفة آلامه إلا وانفجر بالبكاء..

وما هي إلا لحظات حتى رأيت أمامي دموع الرجل الخمسيني تتقاطر من لحيته..!!
لم يكن قد تكلم بعد...!

سألته بالله أن يخبرني بشكاوه..

وأشعرته بأنني لن أعده وأمنيه بأية مساعدة ولا أريد منه إلا أن يخفف بكلامه شيئاً من الآلام...!!
وحينما رأى أنني لن أساعده تجراً على الكلام فهو قد سئم حقاً من الوعود..!
تكلم وليته لم يتكلم.. قال لي: عن مازا أتكلم وقد تركت أطفالي يرتجفون من البرد..؟
وعن مازا أتكلم وأنا أبحث منذ خمسة أيام عن أي نار أطبخ عليها وعاءً من الطعام..
فلم أجد الغاز ولا الكاز ولا المال ولا الحطب!!

وعن مَا أَتَكَلَمُ وَأَنَا لَا أَدْرِي كَيْفَ أَدْخُلُ الْبَيْتَ بَعْدَ رَحْلَتِي لِسَاعَاتٍ فِي الْبَحْثِ عَنْ وَسِيلَةٍ أَطْبَخَ عَلَيْهَا لَوْلَادِي أَوْ أَحْضَرَ لَهُمْ بَعْضَ الطَّعَامِ !!
سَكَتَ الرَّجُلُ ثَانِيَة.. !!

رَفَعَتْ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَدْ غَصَ صَوْتُهُ مَرَةً أُخْرَى !!
حَاوَلَتْ بِتَقْلِيلٍ أَنْ أَحْرُكَ لِسَانِي بِبَعْضِ الْكَلْمَاتِ فَلَمْ أَسْتَطِعْ !!
تَسْمَرَتْ فِي مَكَانِي شَارِدًا سَارِحًا فِي مَدِي إِجْرَامِ ذَلِكَ الصَّعْلَوْكِ الْأَسَدِ وَالْمُدَاعِمِينَ لَهُ خَنَازِيرِ رُوسِيَا وَإِيْرَانَ وَأَذْنَابِ الْمَجَمِعِ الدُّولِيِ !!

صَحْوَتْ مِنْ شَرُودِي عَلَى وَقْعِ خَطُوطِ الرَّجُلِ يَسِيرُ مُبْتَدِئًا عَنِي مُتَابِعًا طَرِيقَهُ لِتَنَاوُلِ وَجْبَتِهِ الْمَسَائِيَةِ مِنَ الْآلَامِ.. أَسْرَعْتُ إِلَيْهِ.. أَوْفَقْتُهُ.. نَادِيَتِهِ.. أَقْسَمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا وَأَنْ يَتَجَاوبُ مَعِي فِي مَسْعَى إِلَى مَا يَمْكُنُ أَنْ يَسْتُدَّ بِهِ بَعْضَ تَلْكَ الْآلَامِ.

المصادر: